رواية

سعيد ديدي

كتاب عادي

كتاب عادي

الفهرس

مقدمة إلى كتاب عادي

هذا الكتاب الذي بين يديك، أو على هاتفك، أو بأي طريقة تقرأه، هو رواية تتحدث عن شخص عادي يعيش حياة عادية. هذه الرواية تحاول أن تكون عادية، لا شيء يميزها سوى هذا السعي. لست متأكدًا من جاذبية هذا الكتاب، فالأمر يعود لذوقك. لم أجد كتابًا أجد فيه نفسي، فقررت أن أكتب واحدًا.

سيرة ذاتية مستقبلية

أعتبره سيرة ذاتية، لكنها مستقبلية، تحكي عن شخص قد أكونه يومًا؛ شخص يخاف أن يكون عاديًا، لكنه مصير لا يستطيع الهرب منه رغم كل محاولاته. إنه شخص يستيقظ كل صباح مع هدف لا يستطيع الوصول إليه، يكرر ما يقوم به يوميًا، ويعيش حياة بلا معنى. فهل سينهار ويتقبل هذا المصير، أم ينجح في تغييره؟ أكتبها لأواجه هذا الخوف، لكنني أُسقطه على شخص آخر.

دوافع الكتابة والنشر

رغم أنني لست مهتمًا بنجاح الكتاب أو نشره، إلا أنني سأنشره على أي حال. هدفي من الكتابة هو أن أكتب من أجل أن أكتب أولًا، وأعرف نفسي ثانيًا، وأخيرًا أن يقرأه أحد إذا وجد ما يعجبه فيه، رغم أنني لا أعد بهذا شخصيًا. قررت أن يكون كتابي الأول واقعيًا بدلًا من الخيال الذي أهرب إليه عادةً، لكن قد يكون هذا نوعًا آخر من الهروب.

إهداء خاص

إلى القارئ الأول:

لن أذكر اسمك، لكنك تعرف نفسك جيدًا، أقدم لك خالص الشكر على تشجيعك.

الفصل الأول: الاستيقاظ

إنها الخامسة صباحًا. ما إن أفتح عينيّ، حتى أتجه مسرعًا نحو الزاوية الأخرى المقابلة لسريري، حيث أضع مكتبي، لأطفئ المنبه لكي لا أزعج الجيران. صوته مزعج جدًا، لكنه لا يفشل في إيقاظي. أستيقظ عمدًا منذ سنوات، رغم أنه لم يحدث أي فرق سوى أنني أبقى متعبًا طوال اليوم.

ارتمي على الكرسي أمام مكتبي الصغير الأسود لا زلت أحاول أن أستيقظ حقا، المكتب عليه حاسوبي ومذكرات فارغة لا أكتب فيها شيئًا؛ لأنه لا شيء لتذكره، فأنا أعيش اليوم نفسه كل يوم. أتأمل السقف محاولًا تذكر أي حلم، لكنني لا أنام بما يكفي لأحلم أصلًا. بالكاد أنام خمس ساعات.

أنظر حولي إلى غرفتي شبه الفارغة، عدا المكتب توجد طاولة قرب السرير وتلفاز بالكاد أستعمله. ليس كأن الأشياء ستتحرك وحدها، لكنني أتأكد أنها في مكانها كل يوم. ألقي نظرة على هاتفي أملًا في أن أرى أي إشعارات، لكن كالعادة لا شيء سوى بعض الفواتير. أتساءل متى كانت آخر مرة كان لدي أصدقاء حقًا؟ ربما في الثانوية. يا لها من حياة! آه، يوم آخر عليّ عيشه.

فيما أفكر الآن؟ هناك أشياء أهم أفعلها. عليّ الاستعداد للذهاب إلى العمل. أتجه مسرعًا للحمام، ليس لأنني شخص نشيط أو ما شابه، أنا فقط اعتدت على السرعة. ما إن أدخل، أرى انعكاسي على المرآة. لا يمكنني إلا أن أضحك عندما أرى وجهي. ربما هذا نوع من المواساة لنفسي لا أحد ليقدمها لي، وربما نوع من السخرية فحالي حقًا مضحكة، وربما هو حزن عميق لا أستطيع التعبير عنه إلا بالضحك.

أغسل وجهي بماء بارد، ثم أذهب لمطبخي لأعد الفطور، فلا أحد غيري في المنزل ليعده. أحضر قهوتي المرة. كم أكره هذه القهوة! لا تستطيع حتى إيقاظي، لكنني أرغمت نفسي على الاعتياد عليها. أرتدي ملابسي، في الغالب هي سوداء أو رمادية، تتشابه في الشكل، فهل هناك أحد حقًا يبالي بما أرتديه؟ ثم أغادر نحو مقر عملي في منتصف المدينة.

الفصل الثاني: الطريق إلى العمل

أخرج من باب العمارة التي أسكن فيها، أقطن في الطابق الأرضي. اشتريتها عن طريق قرض سأقضي ثماني عشرة سنة من حياتي لأدفعه. يا للعبث! كيف أصبحت عبدًا للبنوك؟

أمشي في طريقي نحو الحافلة. ليست ببعيدة، مسيرة عشر دقائق. بينما أنتظر وصولها، الذي من المفترض أن يستغرق عشرين دقيقة، أي مع السابعة والنصف، أتأمل السماء. إنها غائمة، لا يمكنني أن أرى الشمس في أول شروقها. رغم عدم حبي للجو الماطر، لكنه على الأقل جو جديد.

أرى الحافلة قادمة، يا لها من حافلة صغيرة مهترئة بالنسبة لمدينة بهذا الحجم! أصعد إليها، رائحتها من الداخل مزيج من الوقود ودخان السيارات. سأبقى واقفًا بسبب الاكتظاظ. أرى كل يوم الوجوه نفسها، مع الابتسامات نفسها. لا أعرف هل هم حقًا سعداء، أم أنهم يجيدون التمثيل وأنا لا؟ وجهي بالكاد يظهر أي تعبير. حتى المشاعر السلبية تعلمت أن أتحكم بها، كي لا أظهرها.

أفكر في شراء سيارة. ربما تكون تغييرًا جيدًا لهذا الروتين القاتل. من لا يريد سيارته الخاصة؟ ربما سأبحث في الموضوع بعد العمل.

قطع حبل أفكاري صوت السائق. ليس صديقًا، لكنني أعرفه معرفة سطحية بحكم أنني أركب معه كل يوم. لا أبادر بالكلام أبدًا. هو شخص اجتماعي وودود، لا يوجد مكان يتوقف فيه لا يعرف فيه أحدًا، ربما بسبب كِبر سنه وطول خبرته في المهنة.

يسألني عن أحوالي وكيف تسير الحياة معي. أحاول إبقاء الإجابات قصيرة، ولا أقول أكثر مما يُطلب، رغم جهده في جعلي أنفتح قليلًا.

هذه المرة، ألقيت التحية أولًا. قلت: "السلام عليكم." ردّ: "وعليكم السلام." كان على وجهه تعبير يمزج بين الاستغراب والفرح، ربما لأنني أول مرة أبدأ الحديث معه. شعرت أنا أيضًا بنوع من الإنجاز، لأنني أتحدى هذا الروتين.

بدأت أسأله عن صحته. فهو يتقدم في العمر، رغم أنني لا أهتم حقًا، لكن الحياة تعلّمك ارتداء أقنعة، أظنها ضرورية للتفاعل مع المجتمع.

ما إن أنهيت حديثي مع السائق حتى لمحت الشركة التي أعمل بها، تلمع واجهتها الزجاجية من بعيد. أعمل مبرمجًا هناك. وظيفة أردتها منذ الطفولة، لكن لا يمكنني أن أسميها حلمًا.

الفصل الثالث: الانهيار

ها أنا أمام باب البناية. أرى الحارس من بعيد يُلقي التحية. يشبه حارس مدرستي القديمة، مما يجعلني أعتقد أن كل من يزاول هذه المهنة يحملون الوجه نفسه. أدخل متجهًا إلى مكتبي عبر الباب الدوّار، بعد أن سجلت حضوري. هذا أمر ضروري يضمن استلامي للراتب، ما دامت الشركة لم تُفلِس على الأقل.

أرى زملائي في العمل. يحسبونني صديقًا، لكنني لا أعتبرهم إلا معارف. أمر هذه الصداقات السطحية! ولا أجد العميقة. يا لها من حياة! هل تستحق أن تُعاش؟

ألمح زميلة من بعيد، لا أذكر اسمها، فلست جيدًا في تذكّر الأسماء. لكنني أعرف القليل عنها؛ هي شخص محبوب، وأعتقد أنها سعيدة حقًا. ليست أنها تعيش أفضل مني أو تتفوق عليّ، لكن تفكيرها بسيط. ليست غبية، لكنها تُهمل التفاصيل غير الضرورية التي قد تسبب الحزن والإجهاد. أريد أن أقول إنني أغبطها، لكنني أعلم أنني في أعماقي أحسدها. لماذا هي سعيدة وأنا لا؟ أشعر أحيانًا أنني ملعون.

ما إن تصل حتى تقول: "مرحبًا" بكل حيوية. تبدو كطفلة لم تُلقَ عليها أحمال الدنيا بعد. رغم نار الحسد التي تأكلني، أحاول إنكارها، وأردّ بكل هدوء: "مرحبًا."

قالت: "أنت شخص لطيف، على عكس ما كنت أظنه عندما رأيتك لأول مرة قبل سنة." قلت: "لطيف قليلًا." هذه هي الإجابة التي أعطيها دائمًا عندما يصفني أحد باللطف، لأنني أرى نفسي استغلاليًا، ولا أعرف أين يرون هذا اللطف. أحاول إنهاء الحديث بسرعة، وأن أجلس على مكتبي للبدء في العمل.

لا أعلم إلى متى أستطيع التحكم بتعابير وجهي. يومًا بعد يوم، أشعر أنني أدنو من الانهيار. أتمنى لو بإمكاني الصراخ!

إنها الثامنة. لدي أربع ساعات من العمل حتى موعد الغداء. الوقت يمر ببطء. يمكنني سماع صوت عقارب الساعة. صوتها كأنه نوع من العذاب. مُعلّقة على الجدار حيث يراها الجميع، لكنني أشعر أنها تتوقف حين أشيح بنظري عنها.

أخيرًا، إنه وقت الغداء. أجلس وحيدًا كالعادة في الزاوية، آكل طعامي الذي كنت أحبه يومًا، لكنني الآن لا أريد إلا إنهاءه حتى أعود للعمل.

فجأة، جاءت مجموعة من الموظفين، تبادلوا أطراف الحديث. يبدون مستمتعين على عكسي. بدأ أحدهم يحاول جذب الانتباه في المجموعة بالسخرية من طريقة كلامي، وهذا شيء لا ألقي له بالًا عادة. منذ أن كنت صغيرًا، لم أُبالِ بأي نوع من التنمر اللفظي، لكنني حذرته: "إن استمررت في هذا، فسألكمك."

ظن أنني أمزح، فقال: "الكمني!" عادت في مواقف كهذه أتخيل نفسي أضرب أحدًا لم أفكر كثيرًا في هذه العادة لكنني هذه المرة لم أشعر إلا وقبضتي في منتصف وجهه تسربت خيالاتي إلى أرض الواقع لم اكن واعيا حين شدت قبضتاي وحدهما.

ارتسمت الصدمة على وجوه الجميع حتى أنا. لم أتوقع فعلًا كهذا مني! بقيت واقفًا أمامه، مبتسمًا. لم أجد تعبيرًا آخر يناسب الموقف. رغم أنني في الداخل أشعر بغضب وعار وخزي، كلها موجهة لنفسي. كأنني خنتها. لا أعلم هل هذا مجرد رد فعل أم هذا أنا حقًا وقد انكشفت بعد سنين من الكذب على الذات.

الفصل الرابع: تداعيات غير متوقعة

استُدعيت لاحقًا إلى مكتب المدير، وهو أمر متوقع بعد ما فعلت. دخلت وتفضلت بالجلوس؛ لم أنتظر إذنه. إنها عادة قديمة في التعامل مع الجميع بالتساوي مهما اختلفت المراتب. قد أبدو هادئًا من الخارج، وجهي محايد، لا توجد قطرة عرق واحدة على جبيني، ولا يوجد أي دليل على التوتر الذي أشعر به. أتساءل: هل سأُطرد؟ هل يمكنهم فعل هذا؟ إنها المرة الأولى وستكون الأخيرة. إنها مجرد حادثة.

سألني: "ما اسمك؟" لم يعطني فرصة للإجابة وتابع كلامه قائلًا: "لا يهم. يمكنك أخذ بقية اليوم راحة." قد يبدو أنه يهتم بصحتي أو ما شابه، لكنها طريقة لطيفة لقول: "سنخصم ما تبقى من ساعات العمل من راتبك." كل الموظفين في نظره سواء، لسنا إلا أدوات، هذا واضح من بروده.

غادرت المكتب، لا أعلم إلى أين أذهب، فقط أمشي تائهًا في الطريق وأفكاري أيضًا. من المفترض أن هذا وقت العمل، ماذا سأفعل فيه إن لم أكن أعمل؟ يجعلني هذا أتساءل من أنا حقًا حين يختل روتيني. خروجي المبكر من العمل جعلني أدرك كم أنا فارغ، ومن ذاك الشخص الذي ضرب أحدًا في العمل؟ هل هو أنا حقًا؟

أعيش في هذه المدينة بعيدًا عن أسرتي، انتقلت بغية تحقيق ذاتي ففقدتها. لم أتواصل معهم منذ فترة، مع أن كلامي معهم قليل حتى عندما كنت أعيش بينهم. هذه المدينة ببناياتها العالية، كل شيء يبدو براقًا وجميلًا من الخارج، كأنها معدة للعرض لا للسكن. الزوار لا يعلمون كيف يعيش الناس في الخفاء. الكل يبدو سعيدًا عداي، لا أحد يعلم بمعاناتي ولا أحد لأخبره عنها. لا أريد من يعطيني حلًا، أريد من يسمع.

لا أعلم إلى أين تأخذني قدماي. أرى الوجوه ولا أستطيع تمييز ملامحها. أسمع الكلمات ولا أفهمها، عالق في رأسي. أريد البكاء، لا أذكر متى آخر مرة بكيت أو عبرت عن مشاعري بشكل طبيعي.

الفصل الخامس: العودة إلى فراغ الذات

مشيت حتى آلمتني قدماي، لم أمشِ هكذا منذ زمن. وجدت نفسي دون وعي أمام العمارة التي أسكنها مع الساعة الثامنة مساء. رأيت جاري أمام الباب، تجاهلته ودخلت مسرعًا، لم تبقَ لي أي طاقة للنفاق الاجتماعي. انتهيت من ارتداء القناع لهذا اليوم، القناع الذي لم أكن أعلم أنني أرتديه. كنت أظنني حقيقيًا وأن الناس هم المزيفون، فاكتشفت أنني فقط أمارس نوعًا مختلفًا من الخداع.

اتجهت إلى الحمام، لم أنظر إلى المرآة؛ لا رغبة لي في النظر إلى وجهي. اغتسلت بغية إزالة التعب وربما حتى أفكاري السلبية تذهب مع الماء، لكنها لا تفعل.

لم أعد أطيق الجلوس مع نفسي. أتذكر كم من الهوايات كنت أزاولها، لم أعد أجد فيها أي متعة. أحاول فعل أي شيء مشتت، أحاول الهرب من التفكير في أي شيء، لكنني لم أفلح. استمررت هكذا حتى موعد النوم مع العاشرة. لم آكل العشاء فلا شهية لي.

أردت النوم لكنني لم أستطع رغم هذا الإرهاق، صخب أفكاري لا يسمح لي أن أرتاح استمر هذا حتى منتصف الليل فشلت في الالتزام بأبسط مهام يومي أجهشت بالبكاء، بكيت بحرقة لكن بصمت. لا أحد يسمع، لا أحد يعرف. وحيد تمامًا. شعرت للحظة أنني آخر من تبقى في هذا العالم، لكنني أدركت عبثية هذه الحياة التي أعيشها حين أصبحت أي محاولة لتغيير الروتين جزءًا من الروتين نفسه.

الفصل السادس: كسر الروتين

استيقظت بعد ليلة من النوم المتقطع. لم أضع منبّهًا هذه المرة. لم أغسل وجهي، اتجهت مباشرة إلى المطبخ. سخّنت الماء، وضعت القليل فوق بعض القهوة، حرّكتها جيدًا حتى حصلت على رغوة، ثم أضفت من الماء ما يكفي لفنجان. كان بإمكاني الشعور بمذاقها فقط من الرائحة.

حملت الفنجان. أردت حقًا كسره، وألّا أشرب هذه القهوة مجددًا. لطالما أردت فعل هذا. قضيت بعض الوقت أفكر حقًا في كسره، لكنني عدلت عن الأمر. قررت فقط ألّا أشرب القهوة. ما الذي كان يُجبرني على شربها؟ هل كنت أحب عقاب نفسي، أم كنت أخاف التغيير؟

لا أتذكر متى اشترته أمي لي لقد كان معي منذ سنوات، ذلك الفنجان البني. لماذا سأرغب بكسره؟ أسأل، كأن هناك أحدًا غيري سيُجيب. هل بدأت أفقد السيطرة، أم بدأت أفقد عقلي؟ هل كنت عاقلًا يومًا ما؟ لكن المجنون لا يمكنه التساؤل عن جنونه.

لا أرغب في الذهاب إلى العمل. جاءتني عدة اتصالات من المدير والزملاء، لكنني لم أردّ. أنا متأخر، ولا رغبة لي في التواصل. بقيت فقط أتجول في المنزل، وأتأمل فنجان القهوة وهو يبرد.

ذهبت إلى العمل جائعًا، سيرًا على الأقدام. الحارس لم يُلقِ التحية كالمعتاد. الجميع يتجنبني، يرمقونني بنظرات غريبة، كأنهم لم يكونوا يضحكون معي بالأمس. شعرت أنني ضئيل الحجم، نظرت إلى الأرض واستمررت في طريقي. لا أحد يُبالي لماذا تأخرت، حتى المدير؛ فأنا قابل للاستبدال في أي وقت.

الخاسر الوحيد هو أنا. لماذا لا أترك هذه الوظيفة فحسب؟ ليست كأنها الشركة الوحيدة، لكنني لو كنت أستطيع، لفعلت ذلك منذ زمن بعيد. هل من شركة أخرى ستقبلني؟ أنا مثل أي موظف عادي في هذا المجال، لا شيء يميزني.

عملت حتى وقت متأخر. لم آكل حتى عدت إلى المنزل. حاولت النوم، ولم أنزع حتى ملابس العمل.

الفصل السابع: الانطفاء

استيقظت في الساعة الثانية عشرة ظهرًا. لم أذهب إلى العمل. لم أتصل بأحد لأخبره. فقط بقيت في السرير أحدق في السقف. لا أفكر في شيء محدد، مجرد فراغ. هل هذا ما يسمونه الاكتئاب؟ أم هو مجرد كسل؟

نهضت أخيرًا لأشرب الماء. نظرت إلى فنجان القهوة البارد من الأمس. ما زال هناك، يذكرني بفشلي في تغيير أي شيء. حتى هذا القرار البسيط لم أستطع الالتزام به.

جلست أمام الحاسوب. فتحت بريدي الإلكتروني. رسائل من العمل تسأل عن غيابي. لم أردّ على أي منها. ما الفائدة؟ سيجدون بديلًا لي قريبًا، وستستمر الحياة كما لو أنني لم أكن موجودًا أصلًا.

هل هذا هو الانطفاء؟ هذا الشعور بأن كل شيء لا معنى له، وأن وجودي أو عدمه سواء؟ ربما هذا ما كنت أسعى إليه دون أن أدري. أن أصبح لا شيء، مجرد ظل يمر دون أن يترك أثرًا.

نظرت من النافذة. الناس يمشون في الشارع، كل واحد منهم له هدف، له مكان يذهب إليه. أما أنا فلا أعرف حتى لماذا أنا هنا. هل هذا هو المصير الذي كنت أخافه؟ أن أصبح شخصًا عاديًا لدرجة أنني أختفي تمامًا؟

ربما هذا ليس نهاية القصة. ربما هو مجرد بداية أخرى. بداية لشيء مختلف، أو ربما بداية لقبول ما أنا عليه. لست أدري. كل ما أعرفه أنني ما زلت هنا، ما زلت أتنفس، وربما هذا يكفي الآن.

الفصل الثامن: أسوأ من الموت

اتجهتُ نحو المطبخ، أرغمتُ نفسي على أكل أي شيء. متى استمعتُ لجسدي على أي حال؟ عدتُ زحفًا إلى غرفتي، أبحث عن مذكّراتي الفارغة، لأُفرغ ما في داخلي. عادة قديمة تخلّيتُ عنها بحكم الانشغال.

لا كلمات تأتي. لا أعرف: هل أنا الذي لا يُجيد التعبير، أم أن ما في داخلي لا يمكن التعبير عنه؟ تخلّيتُ عن فكرة الكتابة؛ لا أملك الصبر الكافي لاعتصار مخي. رأسي يؤلمني بما فيه الكفاية.

اكتفيتُ بالكلام مع نفسي، أكثر شخص أعتقد أن الكلام معه مجدٍ. سألته: "هل ننهي هذا؟ ننهي هذه الحياة؟" لكني أدركتُ أنني لا أستطيع فعلها، ليس رغبةً في الحياة، بل فقط لأني أملك ما يكفي من العقل لأخاف الموت.

ارتميتُ على السرير، أنظر إلى السقف لساعات. لا شيء أفعله، ولا رغبة لي في فعل أي شيء غير هذا. أتأمل، أحاول التفكير، لكن لا أسمع صوت أفكاري على غير العادة.

أتمنّى لو أنام ولا أستيقظ مجددًا... أغطّ في نوم أبدي. أحاول تذكّر أي ذكرى سعيدة، ولا يمكنني. يا لها من ذاكرة أملكها! أحاول تخيّل أي شيء، ولا أرى إلا وجوه الجيران حين يكتشفون جثتي... لو متُّ حقًّا.

النهاية

استيقظت لا اعلم متى نمت لا اعلم كم الساعة و لا اهتم اتجهت نحو الحمام غسلت وجهي حلقت ارتديت ملابسي كالعادة شربت قهوتي في رشفة واحدة بدون اهتمام لمرارتها و غادرت المنزل لا اعلم الى اين سادهب و لا اعلم ان كنت ساعود